أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية

د/ زغلول راغب النجار

عرض: أ/ مسعود فلوسي

في عصر الانفجار العلمي والمعرفي، وفي زمن تصدر فيه في كل يوم آلاف المقالات والدراسات العلمية والاكاديمية والفكرية في مختلف فنون المعرفة والثقافة الإنسانية، قد يبدو أن الحديث عن كتاب صدر منذ أكثر من سنتين، هو حديث غير ذي فائدة ولا معنى، باعتبار أنه سيكون حديثا تأريخيا عن فكرة عقبتها في ميدانها أفكار كثيرة. ولكن - مع ذلك - يبدو لي أن الكتاب الذي نحن بصدده، من النوع الذي ينبغي قراءته والحديث عنه في كل وقت، خاصة وأنه يعالج مسألة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لنا نحن أبناء العالم الإسلامي الذي نعاني ويلات الغزو الفكري والثقافي، وفي أهم قطاعات المجتمع، ألا وهو قطاع التربية والتعليم، هذا القطاع الذي لا تزال الطرائق والوسائل التربوية التي تطبق فيه، تستند إلى مرجعية ثقافية غريبة ودخيلة، تتنافى مع مرجعيتنا الحضارية وهويتنا الثقافية التي ينبغي أن يكون لها حضورها وتأثيرها.

إن اهتمامنا بهذا الكتاب يرجع أساسا إلى اهتمامنا بالتربية كميدان حساس للتأثير والتوجيه، ذلك أن التربية كما يقول أحد المفكرين المسلمين المعاصرين: (هي الرحم الذي تتخلق فيه الأجنة بكل طاقاتها وقدراتها بشكل سليم، وهي المحضن والمناخ الذي يوفر الشروط لرعاية القابليات وتنمية كل القدرات والطاقات التي توزع وظائف الحياة الاجتماعية واكتشافها وتوجيهها، وتشكل النسيج الاجتماعي للأمة وفق تخطيط تربوي صحيح).

ولما للتربية من أهمية وخطر؛ فقد تضمنت المذهبية الإسلامية أهم المبادىء والقسمات الرئيسية

التي ينبغي أن تقوم عليها التربية السليمة، والطرق والوسائل الصحيحة التي ينبغي استخدامها واتباعها.. وقد توالى العلماء والمربون المسلمون عبر التاريخ على محاولة استكشاف نظرية الإسلام في التربية واستجلاء عناصرها، وتركوا في ذلك اسهامات جمة وأعمال غزيرة، وإن لم تجد من يطورها وينميها بعد ذلك على كل حال.

أما في عصرنا الحاضر فقد ابتليت النظرية التربوية في الإسلام، أو المنهجية الإسلامية في التربية والتعليم، بصنفين من الناس :

أولهما: أولائك الذين درجوا على تناولها تناولا تاريخيا بحتا في الجانب النظري، دون محاولة النفاذ إلى منهجية إسلامية تحكم النظام التربوي المعاصر، حتى أصبح الدارس للنظرية الإسلامية في التربية؛ ينظر اليها وكأنها تراث ساد ثم باد، تماما كما ينظر إلى نظم التربية عند الرومان والفرس والهندوس واليونان وغيرهم من الأمم البائدة، سواء بسواء.

وثانيهما: أولائك الذين حصروا مناهج التربية الإسلامية ومفهومها في النظم التعليمية في الدول الإسلامية المعاصرة؛ بمجموعة الكتب والمقررات التي تشمل نتفا من العلوم الدينية ـ كما يحلو لهم أن يسموها ـ؛ كالقرآن والحديث والفقه والسيرة في الجانب التطبيقي.

وهم يقدمون هذه النتف للطلاب على أنها شحنات إيمانية، لا على أنها علوم لها مناهجها وقواعدها الخاصة. وفي ذلك إخلال صارخ بشمولية التربية الإسلامية ومفهومها الرباني الصحيح.

لقد طغت (العلمنة) على نظامنا التربوي في جانبيه النظري والتطبيقي؛ طغيانا واضحا، لا يخفي على المتأمل الحصيف، حتى أصبح المسلمون ـ والناشئة منهم خصوصا ـ يعتقدون أن للدين علوم خاصة به، وللدنيا علومها الخاصة بها أيضا، ولا علاقة لأحد الجانبين بالاخر، وذلك ما أدى إلى حدوث المفاصلة الكبيرة بين فكرالمسلم وسلوكه، وتفتت الإطار القيمي والاخلاقي الذي حكم الامة الاسلامية ورشد نظمها المختلفة ـ والتربوي منها بالذات ـ عبر التاريخ .

لقد فاتني إلى الآن التعريف بالكتاب وكاتبه؛ أما الكتاب فعنوانه (أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية)، وقد صدر في طبعته الاولى عن المعهد العالمي للفكر الاسلامي بواشنطن سنة (1410هـ ـ 1990م) في إثنتين وخمسين ومائتي صفحة (252ص) من الحجم الصغير.

وأما الكاتب فهو الدكتور زغلول راغب النجار، من مواليد مصر عام 1923م، وحاصل على دكتوراه في الفلسفة من احدى الجامعات البريطانية، وقد كتب أكثر من مائة بحث ومقال منشور، إلى جانب خمسة كتب نشرت في بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، ثم انه قد مارس التدريس في الجامعة سنين عديدة مكنته من الاطلاع عن كثب على البرامج التربوية والتعليمية المطبقة في العالم الإسلامي؛ لذلك فهو إنما يصدر في كتابه هذا عن تجربة ميدانية واعية، مما مكنه من أن يبرأ من القوادم التي أخذت على الدراسات الأخرى التي حصرت النظام التربوي الإسلامي في جانبه التاريخي، أو نظرت إليه على أنه

مجرد شحنات عاطفية لا علاقة لها بحركة الإنسان على صعيد المجتمع والواقع.

يتوزع الكتاب على مقدمة وفصلين؛ تناول المؤلف في أولهما (تحليل أزمة التعليم المعاصر)، وفصل الحديث في الثاني عن (نظرية التربية الإسلامية واستراتيجياتها في مواجهة أزمة التعليم المعاصر).

طبيعة أزمة التعليم المعاصر:

يلخص المؤلف أزمة التعليم المعاصر في تزايد الأمية بنوعيها: أمية الجهل بالقراءة والكتابة، وأمية الجهل برسالة الإنسان في هذه الحياة، وكلتا الاميتين آخذ في الازدياد بين الناس وسط عصر تميز بانفجار حقيقي في المعرفة؛ فالاولى يتزايد فيها مجموع عدد الاميين البالغين في العالم بصورة مطردة؛ وذلك نظرا للإنفجار السكاني وللأزمات الاقتصادية التي تحول دون مسايرة التوسع في التعليم للزيادة السكانية (خاصة في الدول النامية). والثانية تكاد تجرف العالم كله؛ نظرا لتصفية نظم التعليم الديني في العالم بصفة عامة، وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، وإحلالها بنظم علمانية لا دينية، أصبحت تدور بالعلمية التربوية وبالمعارف الإنسانية كلها في إطار مادي صرف، وبذلك تأتي جزئية قاصرة منقوصة، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوية أو التعليمي على الوجه الاكمل. ويرى المؤلف أن الذي زاد هذه العلمانية تعمقا ورسوخا:

عملية الفصل المتعمدة بين التعليم الديني وغيره (في الدول التي بقي لها شيء من التعليم الديني) خاصة في العالم الإسلامي، والتضييق على المعاهد الإسلامية حتى تم حصر نشاطها في دور تقليدي يتلخص في المحافظة على التراث ونقله من جيل إلى جيل. وباختصار شديد ـ يقول الدكتور زغلول : فإن أزمة التعليم المعاصر تتجسد في غياب المنهج الاسلامي للتربية،وفي غيابه في الدول الإسلامية بصفة خاصة، والتي كان في إمكانها أن تقدم للعالم النموذج التطبيقي في : كيف تكون التربية ؟

أسباب الأزمة:

ينتقل المؤلف بعد إستعراضه لطبيعة الأزمة إلى تحليل خلفياتها وأسبابها العميقة، ويعرضها في ما يلي:

أولا : أسباب اقتصادية واجتماعية:

وتتمثل في الانفجار السكاني الذي يواجه العالم والاقبال الشديد على دور العلم، وارتفاع تكاليف التعليم، إضافة إلى الأزمات الاقتصادية التي حالت دون توسع عملية التعليم وتوفيرها للمقبلين عليها، مما أدى إلى تزايد مستمر في نسبة الأميين البالغين، وفي دول العالم الثالث خاصة.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فقد أدى جمود النظم التعليمية وعدم قدرتها على التغير بالسرعة الكافية في مجتمعات تميزت بمعدل هائل في التغير؛ إلى تباين واضح بين تلك النظم ومجتمعاتها، وبالتالي إلى عدم صلاحية خريجيها وفشلهم في الحياة.

ورغم اعتراف المؤلف بخطورة الابعاد المادية للأزمة إلا أنه يرى أن التركيز عليها وحدها ، قد يخرجها من اطارها الصحيح، ولك لأن التحليل المادي يهتم بإقامة المعهد العلمي أكثر من اهتمامه ببناء الشخصية

الإنسانية الذي هو قضية التعليم الأولى.

ثانيا : أسباب تربوية :

وهنا يستعرض المؤلف مجموعة من المآخذ التي أخذت على النظم التربوية المعاصرة، نذكر منها:

1 ـ عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة لها، تنعكس في أهداف العملية التربوية وفي مناهجها وأساليب ومختلف طرائقها ومعاييرها، وفي كل أمر من أمورها.

2 ـ اتباعها لنظم مناهج محددة، وفشل المناهج المحددة في تربية النشيء، حيث أن المقررات عادة ما تفتقر إلى الترابط والتناسق فيما بينها.

3 ـ انقطاعها عن الحياة والمجتمعات، مما جعل المعارف التي تنقل للمتعلمين معارف مفككة الاوصال، غير مترابطة، ومقطوعة الصلة بالبيئة.

4 ـ افتقارها الى النظرة الإنسانية الشاملة، فهي تهدف ـ في أفضل صورها ـ إلى تخريج (المواطن الصالح) وليس (الإنسان الصالح)، ومن هنا فهي تقصر أهدافها في أطر قومية أو عنصرية أو ايديولوجية ضيقة محدودة، وتغفل التأكيد على معنى الاخوة الإنسانية والمصير الواحد للبشرية.

ثالثا : فقدان القدوة القيادية الحسنة: حيث أن المتأمل في الوجوه الحاكمة في المجتمعات الإنسانية اليوم؛ يجدانها من أقل الناس حكمة وعلما وصلاحا، وفساد هؤلاء ينعكس على النظم التعليمية ذاتها ،وقد ساعد على فقدان الاسوة الحسنة في نظر المؤلف : تلك القيود التي تفرض على المثقفين من قبل الحكومات المستبدة، وذلك الآثار السيئة الناتجة عن التكتلات السياسية والعقيدية والمذهبية غير الرشيدة، وتكتلات الاقليات الانانية، والتي كثيرا ما تؤدي الى اقصاء الصفوة القيادية واحلاها بالمتملقينو الانتهازيين والوصوليين، والذين يشكلون الخطر الداهم على العملية التربوية.

رابعا : غياب الفهم الصحيح لطبيعة النفس البشرية :

على الرغم من المستوى الرفيع الذي وصل إليه توفير الضرورات الأساسية للمعاهد التعليمية فقد شاع الكثير من الملل واللامبالات وعدم الرغبة في التعليم بين الطلاب، كما أخذ الشعور بالقلق والثورة والميل إلى العنف وغير ذلك من السلوك غير المنضبط يتزايد بصورة مستمرة، ورغم محاولة بعض التربويين تحسين الأسس النفسية للعلمية التربوية واقتراح حلول جديدة على أساس هذه التحليلات إلا أن النتيجة كانت عصيانا أكثر وثورة أشد وزيادة في عدم الاستقرار. والسبب في ذلك ـ كما يبسط الدكتور زغلول ـ هو أن المنهج العلمي التجريبي والذي استخدم بنجاح في دراسة العالم المادي وظواهره الطبيعية، قد فشل في دراسة الإنسان ومجتمعاتها فكل إنسان هو في الحقيقة كيان قائم بنفسه، ولا يصح تعميم حالة معينة على سائر بني الإنسان، إضافة إلى أن التحليل النفسي الذي يفتقر إلى فهم صحيح لحقيقة الإنسان ووضعه في الكون ولرسالته فيه، لابد أن يأتي تحليلا ناقصا.

خامسا : اسباب أخلاقية :

فالتعليم المعاصر يخلو من المبادىء الخلقية

والقيمية، وفي ذلك تعارض واضح مع فطرة الانسان ودعوة الاي انتشار التحلل وفقدان القيم، وقد أدي هذا الى فقدان القيم اللازمة لحياة اجتماعية إنسانية كريمة، فسادت الأنانية وعم الفساد والظلم، وإذا كان التاريخ قد سجل نماذج كثيرة من ظمل الإنسان لأخيه الإنسان، إلا أن الظلم الواقع في عالمنا المعاصر قد فاق كل الحدود، وذلك لأنه مدعم برصيد هائل من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، وبقدرات تقنية مدمرة.

سادسا : غياب التربية الدينية وتخلي المجتمعات المعاصرة عن الدين:

فالسمة الغالبة على التعليم المعاصر؛ انه تعليم علماني (لاديني)، لا يومن الا بالمدرك المحسوس فقط، وينكر أو يهمل كل ماهو غيبي، ولذلك فقد دار بالعملية التربوية وبمعالجاته للمعطيات المتعلقة بالحياة البشرية، بل المعارف الاسنانية، في حدود الاطر المادية للأشياء فقط، ومن هنا زتت المعارف المتداولة في معاهد العلم قاصرة منقوصة، وجاءت العملية التعليمية عاجزة عن القيام بدورها التربوي.

نظرية التربية الإسلامية .. الحل البديل:

من التحليل السابق لأزمة التعليم المعاصر؛ يتضح أن الازمة تكمن في انطلاق التعليم المعاصر من منطلق غير ايماني، فضلا عن كونه منطلقا علمانيا لا دينيا، وقد تسجد هذا في فلسفته،واهدافه، ومحتواه، ووسائله. وعلى ذلك فإن المخرج من هذه الأزمة. في نظر المؤلف وفي نظرنا نحن أيضا ـ يتلخص في العودة بالتربية الى منهجها الإسلامي، لأنه هو المنهج الرباني المطابق للفترة الإنسانية ... وهنا قد تثار مجموعة من الاسئلة :

ماهي التربية الإسلامية؟ ماهي فلسفتها، وأهدافها، ومحتواها، ووسائلها؟ وهل قامت هذه التربية الإسلامية بدور في تاريخ البشرية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، عقد المؤلف في الفصل الثاني، الذي بسط فيه الحديث عن نظرية التربية الاسلامية، وخلاصة ما ورد في هذا الفصل مايلي:

أولا : تعرف التربية الإسلامية بأنها النظام التربوي القائم على الإسلام بمعناه الشامل (إن الدين عند الله الإسلام).

ثانيا : تقوم فلسفة التربية على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة، وإيجاز هذه الفلسفة في البنود الآتية:

1 ـ الإنسان مستخلف من الله في الارض، وعلى ذلك فهو متصف بالتمكن من التعلم واكتساب المعرفة التي تعينه على القيام بواجب الاستخلاف.

2 ـ الإنسان جزء من الكون المادي، ولكنه يختلف عنه بأنه كيان روحي عاقل.

3 ـ الخير أصيل في الإنسان، والشر طارىء عليه. وقمّة الخير فيه، ووسيلته إلى إنمائه هي خضوعه بالعبودية لله وحده.

إلى آخر ذلك من البنود الكثيرة الموضحة لفلسفة التربية الإسلامية والقائمة على تكريم الإنسان واعتبار دوره في المجتمع، وكون العلم شيء أساسي في حياة الإنسان.

ثالثا : تهدف التربية الإسلامية إلى بناء (الإنسان الصالح)الذي هو إنسان يعرف ربه ويدين له بالطاعة والعبادة، ويعرف نفسه ويقدرها حق قدرها، ويعرف رسالته مستخلفا في الارض، يعمر الحياة فيها، في ظل من حكم الله وشريعته وهداه، ويعرف مصيرة بعد هذه الحياة.. وهذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح الذي تحكمه خشية الله وتقواه، وما يتبع ذلك من قيم وخلق وعدل اجتماعي.

رابعا : أساس المنهجية الإسلامية في التربية هو الإسلام بشموله، وأهم قواعده :

1 ـ الإيمان الصادق . 2 ـ العلم النافع.

3 ـ الأخلاق الفاضلة. 4 ـ العمل الصالح.

ومن هذه القواعد يتضح خطأ من يعتبرون التربية الإسلامية مساوية لما هو معروف بـ : (التربية الدينية) عند غير المسلمين، والتي تقتصر عادة على الجوانب الوجدانية والعاطفية في الإنسان، دون تطرق إلى عللها العقلية وعلاقاتها بالفكر والسلوك، ومسؤولياتها عن واقع الحياة العملية، وإيجاد الحلول للمشكلات الإنسانية.

خامسا : تعتمد التربية الإسلامية الأساليب المتضمنة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: كالتلقين والمحاكاة، واتباع القدوة، والتعليم، والممارسة، والتعود، والعمل، والتكرار، واستعمال المنطق والمحاكاة العقلية، وغيرها... وكذلك تتعدد الوسائل التربية الإسلامية بتعدد أساليبها؛ فهي تستخدم كل وسيلة تمكنها من غرس الايمان في النفوس، وتكوين عاطفة قوية دافعة الى السلوك بموجب ذلك الإيمان.

ينتهي الدكتور زغلول بعد ذلك الى خاتمة ضمنها جملة من الاقتراحات تشمل خطوطا عريضة لما يجب أن تكون عليه استراتيجية التربية الإسلامية اليوم، وهي مقترحات مستفيضة لا يمكن استعراضها في هذه العجالة، وندعو إلى قراءتها في الكتاب نفسه، فذلك أنفع وأجدى.

بقي أن ننتهي نحن أيضا بعد هذا العرض الذي طال نوعا ما إلى القول بأن الدكتور زغلول راغب النجار قد استطاع أن يتفاعل مع التراث التربوي الإسلامي، وأن ينتقل بالبحث التربوي الإسلامي نقلة نوعية، وذلك من خلال محاولته إستجماع معالم نظرية تربوية إسلامية، تصلح بديلا إسلاميا جادا وعمليا للنظريات والمنهجيات التربوية السائدة اليوم في بلاد المسلمين، والتي تنتمي بأصولها الفلسفية وقيمها الإنسانية إلى مذهبيات وأفكار مستوردة بعيدة عن الاصول العقائدية والقيمية المستقرة في الضمير المسلم في العالم الإسلامي .. كما أن هذه الدراسة تمثل المدخل الصحيح والراشد لمعالجة مشكلات التربية والتعليم في ديار الإسلام، لأنها تتجاوز البحث التاريخي إلى طرح الحلول العملية، كما أنها تتجاوز القضايا الفرعية إلى بسط الأصول العامة، ولذلك فإن هذا الكتاب هو ـ في نظرنا على الأقل ـ مشروع جاد وطموح، ينتظر الدعم والمساندة والمناصحة والتقويم والإثراء والسعي إلى تطبيقه عمليا، وتلك مهمة تعرف أهلها، وهم يعرفونها جيدا كذلك. ■